حقيقة وشريعة .. !

جلستُ يوماً أختتم الصلاة وأردد الألفاظ المائة المأثورة ، ومتدبراً ما تدل عليه من تسبيح وتحميد وتكبير ، بَيْد أن الشيطان سرق فكرى دون أن أدرى فإذا أنا أسرح فى إحدى القضايا أستعرض أحداثها وأتتبع مراحلها وأتوجس من نتائجها !

وغصتُ فى أعماق القضية العارضة حتى ارتطمتُ بقاعها ولسانى يحصى آخر الكلمات المائة التى تعقب الصلوات المكتوبة ، لتكون ذكراً بعد ذكر ، وتحية بعد تحية !!

وشعرتُ بتناقض بيِّن بين حالى ومقالى ، وساءلنى ضميرى : أكنتَ حقاً تذكر ربك ، وتسبحه ، وتحمده ، وتكبره ؟

ولم يكن للكذب مجال ، لقد كان فؤادى فى واد آخر ، وإن كان لسانى يردد ما تعوده من كلمات ..

لقد كنت حاضراً كغائب ، أو غائباً كحاضر ، وما أستطيع الزعم بأنى فيما همهمت كنتُ من الذاكرين !!

إن البون بعيد جداً بين الكلمات التى ننطق بها ، وبين معناها المصاحب لها ، المخبوء تحت حروفها ..

لو كانت إدارة الألفاظ على الشفتين تثبت معانيها للفور كما تدير أزرار الكهرباء فتسطع المصابيح بالنور ، لكنَّا فى حال غير الحال ، ووضع غير الوضع ! ولكن المسافة شاسعة بين الكلمات ودلالتها الملاصقة .

وكم فينا من ببغاوات تجرى على أفواههم كلمات جليلة ، فإذا ذهبتَ تلتمس حقائقها فى نفوس القائلين ، وجدتَ الفراغ أو وجدتَ النقيض .

والمؤسف أن أغلب معاملتنا لله يسيل من هذه العين الحمئة !!

إن أسوأ ما يعترى الفرائض المكتوبة والعبادات الرتيبة أن يؤديها المكلّفون وهم فى شبه غيبوبة ، لا تلاحق عقولهم معانيها ، ولا تحصّل نفوسهم حكمتها ..

ويقول علماء النفس : إن درجات الحس تتفاوت عند مباشرة المرء لشتّى الأعمال ، فقد يقع الإحساس فى بؤرة الشعور ، وذلك فى حالات الانتباه الكامل ، وقد يهبط الوعى إلى حاشية الشعور عند ملاحظة أمور مألوفة .

وهناك منطقة شبه الشعور التى تصحب القيام بأعمال معتادة ، وأظن بعض الدواب تشارك البَشر فى هذه الحالة ، فهى إذا دربت على أشغال معينة أدتها بدقة - دون وعى طبعاً .

والتكاليف الدينية يوم تؤدى على أنها عادات مجردة ، ليس معها الصحو العقلى المطلوب تصبح إلى الأدواء أقرب منها إلى الأدوية ..

بل إن الكفار الصاحين الأيقاظ إذا التقوا فى ميادين الحياة بعابدين من هذا النوع المخدَّر الغافى سرعان ما يسبقونهم سبقاً بعيداً ويغلبونهم غلباً أكيداً ..

إن اللّه شرع الدين موضوعاً وشكلاً ، معنى ولفظاً ، يقظة نفسية ، وحركة بدنية ، فمَن أخذ الظاهر من هذا كله وترك الباطن فهو يعبث بالدين ، ويتخذه لعباً ولهواً ..

ويحسن أن نفرق بين عدة أحوال ، فإن المؤمن الجاد الصادق عندما يشرع فى نُسُك ، يقبل على اللّه معقود العزم حسن القصد .

وربما اختلس الشيطان شيئاً أو أشياء من عبادته ، فهو يحزن لذلك ويتعلم الحرص والحذر . ومراتب المؤمنين فى مدافعة هذه الغارات لا حصر لها ..

وخيرهم مَن تنجح مجاهداته فى صيانة عمله جوهراً ومظهراً ، وأعجزهم مَن استغفله الشيطان فشتت لبه فى متاهات ليس لها آخر كلماً تقرُّب إلى اللّه بعمل ..

ولا بد من استبعاد النيّات الملتاثة فى هذا المجال ..

إننى أحياناً أسمع الأغنية الدينية تصف مناسك الحج أو تعرض حياة الرسول ، فيمتلىء قلبى بالرقة والضراعة .. ثم أستحضر سيرة المغنى والملحن والعازفين فأحس فجوة رهيبة بين جلال ما يقال وفساد مَن يقول ..

إن الفِرَق الماهرة فى أداء هذه الألحان الدينية هى هى التى تستفز الشهوات الساكنة وتزين مزالق الشر لألوف من الخلق وتجدد نشاط الأشرار كيما يسترسلوا فى غوايتهم ..

ولذلك عندما أسمع مناجاة الله على لسان مغن أو مغنية أسأل النفس : أهذا ذكر الله حقاً ، أم هى صنعة الكلام والتطريب وحسب ؟؟

ولِمَ التمثيل بالغناء الدينى ؟

هل تتبعتَ مجالس القرآن التى تحف بنفر من القرّاء المشهورين ، ورأيتَ ما يسود هذه المجالس من صخب وخفة ؟؟

إن الصياح الطائش الذى يفتعله بعض السامعين يستخف للأسف هؤلاء القراء فتراهم ينسون الكتاب ، ومنزله ، وما ينبغى له من إجلال وتوقير ، ويحولون الآى إلى نغم معجب للجهال يزيدهم وَلَهاً على وَلَه !!

ثم ينفض الحفل الماجن دون أن ينشرح بذكر الله صدر أو تدمع لخشيته عين ، أو تنعقد على طاعته إرادة ، ويئوب القارئون والسامعون إلى بيوتهم .هم يخوضون فى غضب الله خوضاً !!

إن ما يُطلب من الناس ليس شيئاً صعب التصور أو عسر المنال ، مطلوب من الإنسان العاقل أن يعى ما يقول ، وأن يعنيه ، وأن يفقه ما يسمع ويستوعبه . فهل هذا تكليف بما يبهظ الهمم !

مطلوب من المصلى إذا وقف بين يدى الله أن يعرف مَن يناجى ، فإذا قال : « الله أكبر » كان شعوره فى حضرة الكبير المتعال عاصماً له من الالتفات إلى غيره ، ومحرِّماً عليه الاشتغال بأمرٍ دونه ، وهذا سر تسمية افتتاح الصلاة بتكبيرة الإحرام .

مطلوب من التالى للوحى أن يفك أغلاق قلبه فإذا نودى سمع ، وإذا بُصِّر رأى ، وإذا استثير نشط ، وقد جاء فى وصف عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ (١) .

العلاقة بالله - على الحقيقة لا على التجوز - تطلب البُعد عن آفتين : التوهم أو الخيال والتمثيل أو التصنع ..

* الآفة الأولى : تجعل المرء يرسل القول على عواهنه ، وقد تخدعه نفسه فيخال الأمنية البعيدة حقيقة ماثلة ، أو يخال الأمر السامى غاية سهلة .

وقوانين الإيمان لا تدع المؤمنين طويلاً . بإزاء هذه الأوهام ، بل ترميهم بالأحداث تلو الأحداث حتى يتكشف معدن النفس ، فإما ثبت الإنسان عندما يقول وتحمّل تبعاته كاملة ، وإما انهزم وبدا عواره ، وفى ذلك يقول جلّ شأنه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (٢) .

والأمل فى الاستشهاد قبل مواجهة العدو شىء عظيم ، وأعظم منه وأدل على صدقة ألا يتبخر الحماس عند اللقاء ، ويتغلب حب الحياة وإيثار السلامة ..

إنَّ الله تبارك اسمه يبغض أصحاب المزاعم العريضة ، فإذا دقت ساعة الجد وجدت الثرثارين خرساً : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

* أما الآفة الأخرى - التى تبعد ذويها عن جوهر الدين - فهى أخذ العبادات من مراسمها البادية ، وبذل الجهد فى إتقان الظاهر وحده .

ولو عقلنا لأدركنا أن القليل مع صحو الضمائر أفضل من كثير لا روح فيه ،

---

(١) الفرقان : ٧٣ (٢) آل عمران : ١٤٢ - ١٤٣ (٣) الصف : ٢ - ٣

تأمل فى حديث إبراهيم الخليل عن ربه ، إنه حديث ليس فيه كشف لمجهول ، ولا تصوير لمعنى مبتدع ، إنه يتناول أقرب المحسوسات إلينا : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * والَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) .

إنّ الرجل العامى يجد هذا الكلام قريباً من حسه ، ولكن حقائق هذا الكلام هى التى فاتت العباقرة فزاغوا .

ليس الأمر تزويق عبارات بليغة ، ولا شرح فلسفات عويصة ، الأمر لا يتطلب أكثر من أن يقرأ المسلم فاتحة الكتاب ، فيعنى كل كلمة ينطق بها ، ويكون قلبه مرآة نقية لما احتوت من حمد الله ، وثناء عليه ، وتعاهد معه ، وتطلع إلى هداه ونعمته .

هذه هى الحقيقة التى تحدّث عنها علماء التصوف ورجال التربية .

لا دلالة لهذه الكلمة غير ما قلناه ، أن يلتزم المسلم بشريعته مبنى ومعنى ، أن ينفعل بتعاليمها لُبّاً وقلباً وجسداً ، أن يرقى إلى مستواها فكراً وعاطفة وسلوكاً ..

لا تعريف للحقيقة غير ما أوضحناه فى الكلمات الآنفة ، أن يتطابق الفؤاد مع اللسان عند ذكر الله ، وأن تتعانق الروح والجسد عند الانقياد لأمره .

ولبعض الصوفية كلام متهافت يوهم أن الشريعة شىء والحقيقة شىء آخر .

يقول « ابن عجيبة » فى « شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى » : « الأعمال عند أهل الفن - يعنى فن التصوف - على ثلاثة أقسام : عمل الشريعة ، وعمل الطريقة ، وعمل الحقيقة ، أو تقول : عمل الإسلام ، وعمل الإيمان ، وعمل الإحسان ، أو تقول : عمل أهل البداية ، وعمل أهل الوسط ، وعمل أهل النهاية .

---

(١) الشعراء : ٧٨ - ٨٠ .

فالشريعة أن تعبده ، والطريقة أن تقصده ، والحقيقة أن تشهده . أو تقول : الشريعة لإصلاح الظواهر ، والطريقة لإصلاح الضمائر ، والحقيقة لإصلاح السرائر » ... إلخ .

وهذ كلام مضطرب مدخول يقوم على التلاعب بالألفاظ ، والعبث بالمفاهيم . فإن الشريعة إصلاح للظاهر والباطن معاً ، وهى عبادة بدنية وإحسان خُلُقى ، لا ينفك أحد هذه العناصر عن الآخر .

ويوغل « ابن عجيبة » - غفر الله له - فى خطئه ، فيصوِّر لقرائه أن الكتاب والسُنَّة أقسام ، بعضها يشير إلى الشريعة ، والآخر يشير إلى الحقيقة فيقول : « أشكل على بعض الفضلاء قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [1] مع قوله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » والجواب - كما يزعم ابن عجيبة - أن الكتاب والسُنَّة وردا بين شريعة وحقيقة ، وبين تشريع وتحقيق ، فقد يشرِّعان فى موضع ويحققان فى آخر ، وقد يشرِّع القرآن فى موضع ويحقق السُنَّة هذا الأمر فى موضع آخر . فقوله تعالى : ﴿ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تشريع لأهل الحكمة وهم أهل الشريعة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحكم الجنة بعمله » تشريع لأهل القدوة وهم أهل الحقيقة » ... إلخ .

وهذا كلام باطل ، لا ينطوى إلا على الفراغ والدعوى . وليس فى دين الله أهل شريعة وأهل حقيقة ، ولا انقسم الوحى الإلهى إلى فريق لهؤلاء وفريق لأولئك .

أما الإشكال الذى أورده فإليك تفسيره ..

اتفق أئمة المسلمين على أن العمل لا بد منه لدخول الجنة ، وأنه سبب شرعى

---

(١) النحل : ٣٢

مطلوب لا يُستثنى منه بَشر ، ولا يدخل بدونه أحد . وقد تظاهرت الدلائل على ذلك من الكتاب والسُّنّة جميعاً .. قال تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ (٣) ، وقال فى المستقيمين : ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ... إلخ .

ولكن المطلوب من العابدين لله أن يتواضعوا له وأن يُكبروا حقه وأن يخافوا لقاءه مهما قدّموا من صالحات . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ﴾ (٥) .

﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ ﴾ .. ليس معناها فعل المعاصى والحذر من عقباها ! بل معناها فعل الطاعات والحذر من عدم قبولها ، لأنها دون ما يجب لله أو دون ما يُحسن المرء .

وبهذا المعنى جاء الحديث الشريف فهو نَهْىٌ عن الاغترار بالعمل ، وليس نفياً لقيمة العمل .

إنه نَهْىٌ عن الاطمئنان إلى العمل والاستكبار به والجراءة على الله بعد إتمامه .

وليس نهياً عن التزود بالصالحات والاستكثار منها .

وغريب أن يفهم عوام المسلمين من الحديث الشريف أن العمل لا لزوم له !! فيم إذن القرآن ؟ ولماذا جاهد نبيه ربع قرن لإبلاغه وإقامة الأمة عليه ؟

---

(١) الأنعام : ١٢٧ (٢) النحل : ٣٢ (٣) الزخرف : ٧٢ - ٧٣
(٤) الأحقاف : ١٤ (٥) المؤمنون : ٦٠ - ٦١

الحديث نفى لأن يكون العمل ثمناً حقيقياً للجنة ، وليس نفياً لأن يكون سبباً حقيقياً لدخولها ، نعم .. فإن الخلود الدائم فى نعيم مقيم ليس الثمن المكافى لعبادة الله سنين عدداً ، ذاك لو خلت العبادة من شوائب الرفض ، فكيف وأكثرنا لو فُحص عمله رُدَّ فى وجهه ؟ ثم كيف لو حوسب الإنسان على النِعَم المغدقة عليه فى الدنيا ، وقيل له : عملك نظير بعض هذه النعم !!

الحديث ليس مناقضاً للآيات ولا للأحاديث الأخرى ، وإنما هو - كما قلنا - كسر للغرور البَشرى وتذكير برحمة الله وتجاوزه وصفحه .

وعلى ضوء هذا التفسير تعرف أن ما ذكره « ابن عجيبة » وغيره عما يسمى « حقيقة » و« شريعة » لا أصل له فى الإسلام .. فدين الله لجميع خلقه .

* * *

صدق المعرفة ووحدة الوجود ..

درجات المؤمنين فى معرفة الله متفاوتة إلى حد بعيد .

ولا تُقبل هذه المعرفة - ابتداء - إلا إذا كانت صحيحة ، مطابقة للواقع .

فإذا شاب هذه المعرفة جهل فاضح كالشرك أو التجسيد رُدّت فى وجه صاحبها ولم تغن عنه شيئاً ..

والمعرفة الصحيحة مراتب :

فالذى يعرف ربه معرفة واضحة غير الذي يعرفه معرفة غائمة . ووضوح الرؤية للغاية المنشودة شىء آخر غير الاندفاع بإحساس غامض ونظر مختلط .

* .. والمعرفة العميقة غير المعرفة السطحية ، الأولى تبقى على اختلاف الظروف ، والأخرى قد تهتز مع الاختبارات العارضة .

والمعرفة الآلفة المستمرة غير المعرفة العابرة المارة .

فقد تعرف إنساناً معرفة جيدة ، وتنشغل عنه بأمور كثيرة أو قليلة ، وقد تعرف آخر معرفة صحبة واستقرار ..

والذى يعرف ربه كلما شعر بحاجة إليه فإذا انتهت حاجته شغلته نفسه ، غير الذى أنشأ علاقة مع ربه يتعهدها بالتحبّب والتردد على ساحته ، فهو موالٍ له معتز بصلته .

* .. والمعرفة الموقنة الناشطة التى تجعل المؤمن يسارع فى الخيرات ، وينهض بالتكاليف ، غير المعرفة الكسول الوانية التى يصحبها التفريط فى الواجب أو استثقال أدائه .

* .. والمعرفة العاصمة من الدنايا الكابحة للجماح غير المعرفة المنهزمة أمام النزوات ..

* .. والمعرفة الموروثة للتوكل على الله فى مواطن القلق والفزع .. غير المعرفة التى تجعل المرء ضارعاً للخلق ذليلاً أمام أصحاب الخوّل والطوّل ..

إن الإيمان يزيد وينقص ، وآثاره فى النفس والحياة تمتد وتنكمش ، والزيادة والنقصان ليسا فى أصل المفهوم العقلى وإنما فى كمه وكيفه .

فالصوت من الفم العادى يتضاعف ألف مرة عندما يمر بمذياع ضخم البوق ، بعيد الصدى .

والإيمان فى بعض الناس قد يتحول إلى حياة تصبغ الشعور والفكر وتهيمن على الحركات والسكنات ، وتجعل صاحبها فى نهار دائم من الأنس بالله وإلف عظمته ..

ومن ثمّ لا يتفاضل المسلمون فى أصل عقيدة التوحيد . وإنما يتفاضلون فيما يبلغه التوحيد فى نفوسهم من أبعاد وآماد .

ومن الجور أن نُسوِّى بين العميق والضحل ، والمتين والضعيف ..

وأقدار المؤمنين عند الله وحظوظهم من مثوبته تتبع درجات إيمانهم على ما شرحنا .

واكتمال الإيمان يوصل إليه بعد جهاد طويل ، ورياضة متصلة ..

ومن الخير أن نعترف بمدخل العناية العليا فى هذا المضمار . فإن الفائزين يغرسون جميعاً لكن حصيلة الثمر فى كف القَدَر .

وما من جهد بذهب هدراً ، حاشا لله ، فهو القائل : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

والمشكلة ليست فى أنّ الله جلّ جلاله يثيب مَن قصده .. فهو مثيب مجيب .

وإنما الذى يجب أن يُعرف بحسم أن العبد فى هذا الميدان محتاج إلى سعة الفضل لا إلى ضمان العدل .

---

(١) العنكبوت : ٦٩

وأن ما يأخذه إن كان أجراً على عمل فلن يعدو المرء مكانه . أما إن كان تطولاً من ذى الجلال والإكرام فـ ﴿ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

ولذلك لا يسبق إلا فقير متجرد من الدعوى ، متعرض للمحنة ، متطلع إلى عطاء المنعم الواسع تبارك اسمه .

وإذا أحب الله إنساناً رطب بذكره لسانه وأنعش به جنانه ويسَّر له ما يرده إليه إن بَعُد ، وما يقيمه على الصراط إن شرد .

والدرب الموصل إلى الله قد تكفل الإسلام بوصف مراحله ومعالمه ، فليس هناك شيء وراء كتاب الله وسُنَّة رسوله ..

إلا أنَّ عواطف الإيمان قد تهيجها عواطف مشابهة - وإن اختلف سببها - تجعل مشاعر فوارة بالرُّقة واليقين تطفر فى جوانحهم بعد سكون .

وتأمل كيف رثى متمم بن نويرة أخاه مالكاً :

وقال : أتبكى كل قبـر رأيتـه ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له : إن الشجا يبعث الشجا ... فدعنى فهذا كله قبر مالك !!

وجيشان العواطف المؤمنة عند جمهور العارفين هو الذي جعلهم ينقلون إلى ميدان الحق معانى قيلت ابتداءً فى مواقف تافهة وصغيرة .

ومن هنا ناجوا الله بقول الشاعر :

إنَّ بيتاً أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السُّرُجِ

وجهك المأمول حُجَّتنا ... يوم يأتى الناس بالحُجَجِ

وهى أبيات من قصيدة فى الغزل !

---

(١) آل عمران : ٧٣ - ٧٤

وكذلك ناجوا الله بقول الشاعر :

فليتك تحلو والحياة مريـــــرة ... وليتك تصفو والأنام غضـاب

وليت الذى بينى وبينك عامـر ... وبينى وبين العالمين خـــراب

إذا صحَّ منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

وهى أبيات قيلت فى مدح سيف الدولة !

والحق أنه كثير على بَشر أن يُخاطب بهذه المعانى . فالله - جلَّ شأنه - أولى بهذه المناجاة ، وأحق بتلك المناشدة .

ولا نريد أن نقف عند تلك الخطرات العوارض ، بل يهمنا أن نصف حقيقة العبودية التى تتضح بهذه المعانى ، أو تتجاوب معها ، وحسبنا فى ذلك الكتاب والسُنَّة ...

إن القرآن الكريم ينقل الإيمان من ميدان التصورات النظرية المعزولة إلى ميدان الشعور الحى المأنوس الواقع ...

ففى مجالسنا حيث نسمر ، أو نجِّد ، يجب أن نعد بين الحضور رب العالمين : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (١) .

وهذا الإحساس بالحضور الإلهى له نتائجه من رغبة ورهبة .

والله ، جلَّ شأنه ، يريد أن نشعر بهذه الهيمنة الشاملة ، وأن نحسب حسابها فيما نفعل ونترك : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (٢) .

وفى الخريف الماضى كنت جالساً وحدى فى حديقة تحت إحدى الشجيرات فسقطت علىَّ ورقة جافة ، فتلفت فى مكانى أنظر هنا وهناك وعلى لسانى قوله

---

(١) المجادلة : ٧ (٢) يونس : ٦١

تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ﴾ ... إلخ [1] .

قلت لنفسى : إنَّ اللّه يعلم بسقوط هذه الورقة الآن !!

وقلبتها بين أصابعى أتأمل ظهرها وبطنها ، وأتفرس فى شبكة العروق اليابسة المنتشرة بين الوسط والأطراف .

ومددتُ بصرى فإذا أوراق كثيرة ساقطة ، ووجدت أنى إن استطعت عد هذه الأوراق الكبيرة فمن المستحيل أن أعد الأوراق الصغيرة تحت الشجيرات الأخرى ...

قلت ذلك وأنا بين بضع شجيرات فى بقعة لا تذكر من أرض اللّه ، فكيف بما تنفضه رياح الخريف فى القارات الخمس ؟

ثم قلت : وعلم ذلك إن أعيا العادِّين فى عصر واحد لكثرته الهائلة ، فكيف بإحصاء ما تساقط على مر القرون من بدء الحياة إلى منتهاها ؟

وأخذتنى حيرة وروعة وأنا أتابع سلسلة هذه الصور ، ثم وأنا أمسك مرة ثانية بالورقة الجافة وأتساءل : كيف نسجت مادتها وكيف تمت صباغتها !!

إن الخضرة فى وجهها هذا غير الخضرة فى وجهها الآخر ، ثم إن أطراف الورقة مزخرفة بمنحنيات متناسقة كثيرة ..

وستعود هذه الورقة طيناً وتنبثق من ظلمات الأرض مرة أخرى ورقة ناضرة يانعة ... وهى فى كل آن من هذه المراحل فقيرة الفقر كله إلى الخالق المصوِّر الذى يتولى إيجادها ..

إيجادها وحدها ؟ كلا ، بل الألوف المؤلفة منها ، والألوف المؤلفة فى كل بستان وحقل ، كان أو يكون .

---

(١) الأنعام : ٥٩

وعدت أقرأ الآية كلها من جديد : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا .. ﴾ (١) .

إن الجانب المادى فينا - معشر البشر - يجعلنا نحتفى بالأبعاد الحسية الثلاثة ، الطول والعرض والعمق ، وقد نكترث كذلك بالبُعد الرابع الذى لفت أنظارنا إليه « ألكسيس كاريل » وهو « الزمن » .

فعندما نسمع بأحجام الكواكب ، والمسافات الشاسعة التى تفصل بينها ، والفضاء الرحب الذى تسبح فيه ، وسرعة الأشعة التى تصدر عنها .. عندما نتابع بالخيال المحض هذه الحقائق الثابتة نشعر بأن عظمة الله فوق ما يطيق العقل ، وأن ما نعرف من جلاله رشْح يسير من بحر موّار .

وأتلو قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

إن البناء الضخم لهذا الكون الذى نعيش فى جانب متواضع منه يبهرنا عندما نطالع امتداداته الهائلة .

لكن هل عالَم النمل أقل إثارة لدهشتنا العقلية عندما نتأمل الطريقة التى تحيا بها كل نملة ؟

وهل عالم الذَرّة أقل إثارة لهذه الدهشة عندما نأذن لخيالنا أن ينطلق بلا حدود مع وصف الأخصائيين للعناصر التى تتركب منها الذَرّة ، والقوى الرهيبة المحتبسة فيها ؟

لا .. إن دلالة هذه العوالم على جلال الخالق لا تقل عن دلالة الأفلاك البعيدة وسنواتها الضوئية المذهلة .

ومع ذلك فلا أدرى لماذا يسطع على عجل شعاع من المجد الأعلى فى بصيرتى عندما أتابع الإبداع الإلهى فى آفاق السماء .

---

(١) الأنعام : ٥٩ (٢) الشورى : ١١ - ١٢

قرأت لأحد علماء الفلك هذه الكلمات :

« من النجوم عدد قليل لا يكاد يكبر الأرض ولكن أغلب النجوم كبير إلى حد يجعل من الممكن أن تجمع مئات الآلاف من الأرض فى إحداها ثم يبقى بعد ذلك متسع لغيرها .

وقد يصادفنا أحياناً عملاق هائل من النجوم يبلغ من الكبر حداً يتسع معه لاحتواء ملايين من الأرض .

وربما كان عدد النجوم فى الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله .

ألا ما أصغر شأن موطننا فى الفضاء بالنسبة إلى سائر ما فى الكون من مواد .

وهذا الجمع العظيم الحاشد من النجوم يسبح فى الفضاء وفيه عدد غير قليل يكوّن مجموعات تسير مترافقة . ولكن أغلبها يجوب الآفاق منفرداً في كون متسع الأرجاء اتساعاً يجعل اقتراب نجم من نجم آخر فى أى مكان حادثاً نادراً يصعب تصور حدوثه .

ولهذا نرى كلا منها يسبح منفرداً فى عظمة وجلال كأنه سفينة تسبح فى محيط لا يشاركها فيه سواها .

وإذا مثلّنا الكون بنموذج ذى مقياس رسم معين تعرض فيه النجوم بحجم السفن كان متوسط المسافة بين كل سفينة وأقرب جارة لها يزيد على مليون من الأميال .

ولهذا يسهل علينا أن نعرف لماذا يندر أن تلتقى سفينة بأخرى على مسافة تستطيعان معها أن تتبادلا التحية ..

والذى يستحق التسجيل أن القرآن والعلم يتركان أثراً واحداً ، ولا أقول أثراً متشابهاً ، عن عظمة الله وتنزيهه وتمجيده .

إن صورة الألوهية فى بعض الأديان دون ما ينبغى بكثير للذى خلق فسوّى والذى قدّر فهدى .

وإنه لشىء ممجوج مكروه أن يُتصور مبدع السموات والأرض ، قد تحدد فى جسد إنسان أو حيوان كما يزعم بعض الناس فى معتقداتهم البدائية التائهة .

إن القرآن يتحدث عن اللّه العلى الكبير فيشعرك بأن قدرته وراء النواة التى تتكون نخلة ، وهى فى الوقت نفسه وراء الفجر الذى يشق الظلمة ليتحول ظهراً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (١) .

وعلى هذا الأساس ينهض الإيمان الحق . وعلى ضوء تلك المعرفة تحيا العلاقة باللّه ، لأنها علاقة إحساس بوجوده ، وملاحظة لصفاته ، ومتابة لآثاره هنا وهناك . وفى هذا الجو وحده يولد مقام « الإحسان » .

والقرآن الكريم مشحون بالمشاهد التى تعلّم الناس « مقام الإحسان » والتى تدرّجهم فى مراتب العبودية على مقدار طاقاتهم العقلية والنفسية ...

والفقيه فى سيرة صاحب الرسالة ، صلوات اللّه عليه وسلامه ، يدرك أنه بلغ فى عبوديته للّه مدى من الاستغراق والإشراق تنقطع دونه همم الخلائق كافة ..

وسنلمح إلى ذلك فى مقال تال .

والأساس العقلى للشعور بوجود اللّه يقوم على ما تقرر فى علم التوحيد من أن أقسام المعلوم ثلاثة : « واجب » و« مستحيل » و« ممكن » .

فالواجب يستحق الوجود من ذاته ولا يُتصور عدمه .

والمستحيل يستحق العدم من ذاته ولا يُتصور وجوده .

والممكن ما لا يستحق من ذاته عدماً ولا وجوداً وإنما يستمد وجوده - إن وجد - من واجب الوجود وحده .

---

(١) الأنعام : ٩٥ - ٩٦

والعالَم كله ، ما نعرف منه وما لا نعرف ، ما نبصر وما لا نبصر ، من هذا القسم الأخير .

حياته عاريةٌ من غيره ، تستوى فى ذلك الجراثيم التى تسكن ألوفها المؤلفة رأس إبرة ، والكواكب التى تتهادى فى دارات الفضاء بين شروق وغروب .

إنها جميعاً تستعير وجودها وحراكها ونظامها من اللّه : ﴿ الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (١) .

والشعور بهذه الحقيقة العلمية تجاوب مع الواقع الذى لا ريب فيه .

ولعل ذلك ما أوحى بهذه الأبيات التى جرى بها قلم مؤلف لا أذكر اسمه :

اللّهَ قَل ، وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتاداً بلـوغ كمـال !

فالكل دون اللّـه إن حققتـه ... عدم على التفصيل والإجمـال !

مَنْ لا وجود لذاته مِـنْ ذاتـه ... فوجوده فى الحق محض خيال !

ونحن نزكى هذا الإحساس لكنّا نلفت النظر إلى شطط يعتريه ويفسده .

فمن حق اللّه ألا نغفل عن وجوده ، ومن حقه أيضاً ألا نجحد أو نجهل ما أوجد .

بل إننا لن نعرف اللّه المعرفة الصحيحة إلا إذا درسنا العالَم الذى خلقه وأودع فى تضاعيف هذا الخلق دلائل عظمته ، ومعانى أسمائه الحسنى .

والإيمان الذى دعا إليه القرآن الكريم هو ثمرة الدراسة الواعية للكون الكبير وما انبث فى جوانبه من أحياء ..

إنك تستطيع أن ترى اللّه فى كل شىء ، أي تستطيع أن ترى قدرته وإبداعه ومجده ، وتستطيع أن تلمح أنه القيّم على كل شىء فى أغوار الأرض وأبعاد السماء .

---

(١) طه : ٥٠

عندما أُعلِن الإحصاء الأخير لسكان الأرض ساورنى خاطر محدود .

هناك أكثر من خمسة آلاف مليون إنسان يعيشون على ظهر هذه الكرة ، قلت لنفسى : إنَّ اللّه وراء خمسة آلاف مليون عقل يجرى فيها تيار الفكر بطيئاً أو قوياً ، تُرَى فيم يفكر كل واحد من هؤلاء ؟

ومن وراء خمسة آلاف مليون قلب تجيش بالرضا أو القلق ، بالفرح أو الحزن ، بالرجاء أو اليأس ، تُرى ما يشغل كل قلب من هذه القلوب ؟

من وراء خمسة آلاف مليون جسد تغلى الحياة فى أعضائها ويجرى الدم فى عروقها وتنقبض وتنبسط بالزفير والشهيق رئاتها .

ما أكثر هؤلاء ... ومع ذلك فاللّه من ورائهم محيط ، ولأمورهم مدبر ، وفوقهم قاهر ، وعليهم قيُّوم .

هم وحدهم ؟ كلا ، هم والأصول التى انحدروا منها والفروع التى تنشأ عنهم إلى ما شاء اللّه جلّ جلاله .

هم وحدهم ؟ كلا ... هم وعوالم الأحياء الأخرى التى تزحم البر والبحر ، وتنتشر فى ملكوت نجهل منه أكثر مما نعرف : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

ما أوضح شىء فى عالمنا هذا ؟ الشمس فى حجمها الضخم ، وما يضطرم فى كيانها من نار ونور ؟

إن الحرائق المستعرة فى جوفها وسطحها ترمى باللهب على مسافات هائلة .. هائلة وهى بعض مظاهر الجبروت الإلهى فى التكوين .

فهل بعد ذلك يضعف الإحساس بالخالق ويقوى الإحساس بالمخلوق ؟

* * *

(١) الأنعام ١٣

وحدة الوجود خرافة

إنّ الشعور بالوجود الإلهى يجب أن يكون حياً غامراً لدى أولى الألباب ..

لكن الكون شىء غير صاحبه ، والعالَم شىء غير اللّه ، ومعرفتنا باللّه فيما أوجد لا تعنى أن الموجد هو الموجود .

ومن السخف أن يرتكس الفكر الإنسانى فى هذه الحمأة .

إنّ الآلة شىء غير مَن اخترعها ، والقصر غير مَن بناه ...

وقد خلقنا اللّه وكلّفنا ، ورتب على تكاليفه مثوبات وعقوبات ، وأنزل بذلك كتباً وبعث رسلاً ...

فكيف نجرؤ على وصفه بالهزل والتزوير فى ذلك كله ؟

ولقد أحصى العلماء العناصر التى يتكون منها العالَم ، وقرروا ما لكل عنصر من خصائص لا تزيد ولا تنقص ، فكيف توصف هذه العناصر بعد ذلك بأوصاف الألوهية ؟

إنّ القول بوحدة الوجود هو - عند التأمل - نفى للألوهية وإثبات للكائنات وحدها ...

فالماء مثلاً مادة معروفة ، وقد شرح الكيمائيون أسلوب وجودها من عنصريها الأساسيين .

وهى من قبل ومن بعد لن تكون إلا الماء .

فالزعم بأنها إلَه أو جزء إلَه تخرص علمى سيسقط من تلقاء نفسه ، وتبقى بعد ذلك العناصر وحدها دون أى وصف إلَهى .

ومن ثَمّ قلنا : إن وحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد فى وجود اللّه ، وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط ، وما دام لا يوجد شىء وراء هذا العالم ، فالقول بأنّ اللّه داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه ...

وفلسفة « وحدة الوجود » ، أو « خرافة الوجود » تفكير هندى قديم ، والقوم يتصورون أن هذا العالم أزلى أبدى ، وأن الأرواح تخرج من أجسادها لتعود فى أجساد أخرى - وقد تكون أجساد حيوانات ! - وأن قصة الحياة تدور فى هذا النطاق المحصور . وتبدأ من حيث تنتهى ، وهكذا دواليك إلى ما شاء الله ، واللهُ - فى أوهامهم - هو هذه العمليات المتكررة !

والغريب أن هذه الوحدة الموهومة قد تسللت إلى بعض الديانات السماوية .

وبين يدىّ قصيدة لشاعر عربى تُصوِّر هذه الأسطورة المنكورة تصويراً تاماً ، قال :

لـــه العوالـــم أعضـــاء مـــرددة ... فيها الحياة على بُعْـد المسافـــاتِ

وما الأثير وما الأجـرام سابحـــة ... فيه ، سوى الدم ، يغلى بالكريّـاتِ

ما كان قَط عن الأشيـــاء منفـــرداً ... بل هن فيه لصوق الذات بالـــذاتِ

تعاشق الكل ، من أعلى الشموس إلـــى ... أدنى الرمال إلى أخفـى الذريراتِ

لو قال : كن ، كان للتكميل مفتقراً ... وكان فى حاجة الماضى إلى الآتى

ســـر التحـول والتكـــرار مطـــرد ... هذى البدايات من تلك النهايـاتِ

رباه أشرق لـــروح منـــك منبثـــق ... أما أنا فيك من بعض الخليـاتِ !

حاولتُ ترويض عقلى فاندفعتُ بـه ... فى مدحـض زلـــق بالعبقريـــاتِ

فخذ بكفى ، ولا تغضبك فلسفتـى ... وعدها لى من بعـــض الحماقـاتِ

وهذا الذى قاله الشاعر حماقة لا ريب فيها ، ومن حق رب العالَمين أن تغضبه تلك الفلسفة السمجة ، وأن يسخط على كل مَن يعتنقها ويروِّجها .

ومن العجائب أن بعض المتصوفة من المسلمين قد انزلق إلى هذه الهاوية وينسب إلى الحلاج قوله :

سبحان مَن أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقـــب

ثم بدا فى خلقه ظاهـراً فى صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقـــه كلحظة الحاجب بالحاجـب

وقد دفع الحلاج دمه ثمن هذا الحمق .

ولا أدرى كيف يقول مسلم ، بل كيف يقول عاقل ، بوحدة الوجود ، إن كان حقاً يؤمن باللّه ويصدِّق المرسلين ؟

لو كانت الأرض لؤلؤاً ومرجاناً ما صح أن تكون ذاتاً للّه فكيف وهى إلى جانب ذلك حصى وبعر ؟ ولو كانت زهراً فهناك الشوك ، ولو كانت وفاءً وأمانة فهناك الغدر والخيانة ...

إن الصاروخ المنطلق فى مداره شىء غير الإنسان الذى أطلقه ، كذلك العالَم شىء غير الرب الذى أبدعه وسيِّره : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُنَ ﴾ (١) .

وأظننا أوضحنا بُعْد البون بين الإحاطة الإلَهية التى يحسها المؤمنون ووحدة الخالق والمخلوق التى يتوهمها الخرّاصون ...

ثم إن العارفين باللّه المشاهدين لقيّوميته قد يستغرقون فى حالات من التأمل العميق تطول أو تقصر ، والاستغراق العقلى أو النفسى فى أمر ما ليس بدعاً فى شئون الناس .

وقد يفجؤنى أحياناً أمر من الأمور ، فأحشد له كل ما فى كيانى من انتباه إلى أن أفرغ منه .

وللعلماء نوادر فى ذهولهم العلمى وغلبة بحوثهم على تصوراتهم .

---

(١) الزمر : ٦٢ - ٦٣

وليس مستغرباً أن يجتذب الحب الإلهى بعض أولى الألباب فيشغلهم عن ذاتهم وينتقل بهم من مآرب الأرض إلى أشواق السماء ...

إلا أنّ هذه الأحوال عوارض لا تصبغ الحياة الإنسانية طولاً وعرضاً .. وهى بداهة لا تنال أصحاب السناء الفكرى والنفسى .

أى أنها شارات اكتمال ثقافى وعاطفى ، فلا يمكن أن يحسها أهل البلادة والقصور ، إن التألق طبيعة الشخصية المتقدة لا الشخصية المعتمة ...

ويبقى أن نتساءل : ما مدى هذا الاستغراق ؟ والجواب : إن لحظات الانتباه الذهنى موقوتة بطبيعتها ، فما يزعمه البعض أنه مجذوب طول عمره إلى الحضرة الإلهية دعوى غير مسلّمة .

نعم .. هناك ألوف المؤمنين المتفانين فى مرضاة اللّه ، الراغبين إليه ، البانين حياتهم وفق مراده ، ولكن ذلك شأن غير ما نحن بصدده .

والمثال العملى الأكمل للمعركة التامة والإقبال العظيم على اللّه يؤخذ من سيرة رسول اللّه ﷺ ، فإن انتباهه المشدود إلى اللّه تبارك وتعالى ، ما أوهى حسه بالحياة ، ولا علائقه بالخلائق ..

ومن هنا فسيرة المجاذيب من المتصوِّفين الذاهلين عن الوجود المادى ، نعدها نحن حالات مرضية لا أمارات صحة ...

فإذا انضم إلى هذا الذهول ما يقال من فناء عن النفس أو فناء فى اللّه ، وما يضيفه الخيال المعتل فى مثل هذه الحالات من صور حلول أو اتحاد ، كل ذلك لا يمكن وصفه إلا بأنه اختلال فى القوى المعنوية ، أو ضرب من الخيال ...

إن المتفانى فى عشق امرأة لا يحوله الهيام إلى ضلع منها أو جهاز فى بدنها ... !!

والإيمان صراط مستقيم لا يتحمل ذَرَّة من هذا الاعوجاج ..

* * *

بين التصوف الإسلامى والتصوف الأجنبى

الموضوع الفريد والصحيح للتصوف الإسلامى يتكون من ثلاثة عناصر :

* أولها : جعل الإيمان النظرى شعوراً نفسياً غامراً ، وتحويله من عقل يتصور إلى قلب يعى ويتحرك .

* ثانيها : تهذيب النفس - على ضوء نسبها الإلهى - حتى تكون بنمائها واكتمالها أهلاً للعبودية . ومقتضى ذلك أن يكون الإنسان مستجمعاً للفضائل ، متنزهاً عن الرذائل ، حتى يرشحه هذا الترقى لقبول الله ورضوانه .

* آخرها : النظر إلى الوجود الصغير فى هذه الحياة على أنه جزء من الوجود الكبير الممتد بعد الموت ، فلا اغترار بالدنيا ، ولا استيحاش من الله . ولا ضيق بالعودة إليه .

وهذه العناصر معروفة فى سيرة الرسول ﷺ وأصحابه ، بل معروفة فى سيرة الأنبياء وحواريهم على اختلاف العصور ...

وجمع حقائقها تحت اصطلاح علمى تصرف مألوف فى المدنيات الإنسانية .

لقد قبلنا علم العروض وانتفعنا بدراسته ...

وهو علم لم يعرفه من قبل أئمة الشعر فى الجاهلية والإسلام .

إنهم سبكوا عواطفهم على إيقاع من موسيقى الفطرة ، وأرسلوها قصائد تُروى وتُغنى ، ثم جاء مِنْ بعدهم مَنْ كشف أسرار هذه الموسيقى و« بحورها » المختلفة .

ودراسة العروض لا تنشىء شعراً ولا تكوِّن ملكة الأدب .. !

ولكنها تضبط نظم المحدثين ، وتعصمهم من الخطأ .

وسلفنا الصالح كان يستجمع فى حياته النفسية والاجتماعية العناصر الثلاثة التى سردناها آنفاً . ولكنه لم يعرف كلمة تصوف ، ولم ينتسب إلى فرقة ما من فرقه ..

كان سَلَفنا الأول يجيد النطق من غير أن يعرف النحو ، وكان يجيد التفكير والاستنتاج من غير أن يدرس المنطق ...

ثم نشأت علوم الدين واللغة مع الحاجة إليها .

وظهر التصوف مع ما ظهر من دراسات ، وإن كان قد نشأ سلوكاً ونمطاً فى الحياة قبل أن يكون علماً ينتمى إلى أسرة العلوم الدينية ...

ولما كان الإسلام ينبع من أصول معروفة ، هى كتاب اللّه وسُنّة رسوله ، فإنّ أي علم من علومه محكوم طوعاً أو كرهاً بهذه الأصول .

وليس يُتصور أن يتضمن أحد هذه العلوم شيئاً مخالفاً لتلك المصادر القائمة المهيمنة ، إلا إذا تصورنا أن علم النحو يتضمن رفع المفعول ونصب الفاعل مراغماً بذلك تراث اللغة كله !

والذى يدعونا إلى هذه التقدمة أن التصوف نزعة إنسانية عامة ، تلتقى فيها الطبيعة النفسية لبعض الناس مع طبيعة الإيمان العميق بأى دين !

نعم .. إن هناك ناساً « فنانين » بأصل الخِلْقة ، يولدون ولهم شعور ضافح ، وخيال وثاب ، وفناء فيما يعتقدون ...

والأرض كذلك مليئة بالمخطئين الذين يظنون أنفسهم على صواب ، بل الذين يظنون وهمهم هو الحق المبين وحق غيرهم هو الوهم المبين .

ومن هنا وجدنا متصوِّفين بين الهنود الذين يعبدون آلهة شتّى ، ومتصوِّفين بين أهل الكتاب الذين خلطوا إيمانهم بالشرك وخطوا لأنفسهم نهجاً فى العبادة لا يتفق مع الوحى ...

ولكي نحرر الكلام فى التصوف الإسلامى ، نرى لزاماً علينا أن نعرض نماذج للتصوف الزائغ حتى يتبين الرشد من الغى .

أمامى صورة لناسك هندى مشهور باسم « راما كريشنا » يُعَد من أعظم نُسّاك الهند ، بل إن حياته - كما يقول الدكتور « محمد غلاب » - من أكمل حيوات الصوفية وأشدها أثراً وأبعدها تغلغلاً فى أعماق القلوب .

ولهذا يقول عنه الأديب الفرنسى الكبير « رومان رولان » : « إن « راما كريشنا » تتويج لجهود آلاف السنين فى سبيل ترقية الحياة الباطنة لمئات الملايين من الهنود ، إذ كان المنعش الروحى الوحيد للهند الحديثة ، ولو أنه ليس أحد أبطال الأعمال الواقعية كغاندى ، ولا أحد عباقرة الفن والفكر كطاغور . إلا أنه كان كذلك بقوة حياته الباطنية وحدها » .

يقول عنه غاندى : « إن تاريخ « راما كريشنا » هو تاريخ الدين فى صورته العملية ، وإن حياته تسمح بأن نرى فيها إلاله وجهاً لوجه (!) وإن أحداً لا يستطيع أن يقرأ تاريخه دون أن يقتنع بأن الإله وحده حق ، وأن ما عداه خيال ووهم » .

ثم يقول « غاندى » : « إنه مثل للعقيدة الحية الساطعة التى تحمل فى طياتها القوة والعون لآلاف من الرجال والنساء ، لولاه لظلوا محرومين النور الروحى » .

فمَن هو « راما كريشنا » الذى بلغ تلك المكانة السنية بين قومه ؟

إنه رجل هندوكى مثل غيره من جحافل الوثنيين الذين يقدسون الماء والتراب والحيوان ، لأن اللّه - فى خيال الهندوك - حالٌّ فى الطبيعة .

كان فى صدر شبابه سادناً لمعبد الإلهة « كالى » وهى إلهة أنثى . ويقول الدكتور غلاب :

« كانت الإلهة « كالى » بالنسبة إليه موضوعاً لعبادة حارة تلهب قلبه وتستنفد قواه وتقلق باله .

ولماذا تقلق باله ؟ لأن الروح الهندية العميقة ترى أن كل معرفة ناقصة ما لم تتحقق فى نفس العارف الشخصية الإلهية التى اختارها (!) !

لقد كان ينتحر وهو يحاول جاهداً الفناء فى هذه الآلهة ، وبينما هو على تلك الحالة من القنوط إذ فاجأته غيبوبة لذيذة هائلة ، رأى معها المعبد كله وقد انمحى نهائياً ثم حلّ محله محيط روحى انهال عليه وابتلعه ، وفى الحال فقد إحساسه

الخارجى ، واستيقظ فيه الوجدان الباطنى ، فجعل يدرك وجود « كالى » (!) وشعر بأن فيضاً لا يوصف من السعادة قد غمره » .

وقد أطلق عليه « راما كريشنا » بعد أن بلغ تلك المكانة وهو اسم مركب من اسمين لإلهين فى الهند وهما طبعاً ، غير الأنثى « كالى » ، وغير الآلهة الكثيرة الأخرى !

ما هذا كله ؟

هذا رجل تخيَّل فخال ، رجل اعتنق خرافة ثم فنى فيها بكل ما لديه من أعصاب وأفكار ...

إنَّ للعالمين رباً واحداً هو اللّه ، اللّه الذى أرسل لنا رسله وأنزل علينا كتبه ، اللّه الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، اللّه الذى ليس كمثله شىء ، والذى لا يوصف بذكورة أو أنوثة ، ولا يحل فى إنسان ولا حيوان ولا جماد : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلا الضَّلَالُ ﴾ (١) .

وقد أوضح اللّه لعباده ما كلفهم به فى أعمال محدودة ، ومقاصد مضبوطة سجلتها توراة موسى ثم إنجيل عيسى ثم قرآن محمد - صلوات اللّه عليهم .

والهندوكية لا تعرف هذا الإله ، ولا تعترف بتلك الكتب ، ومن ثمَّ فهى ديانة أرضية وثنية خالية من الجدّ والحق .

ومهما أرهق متصوفوها أنفسهم ، ومهما قيل عن الآفاق التى بلغوها برياضتهم المعنتة ، فإن تصوفهم كله لا وزن له .

ولما كان التوحيد فطرة فى نفوس الناس ، وكان التعدد شائعاً فى ديانة الهند ، فإن الرغبة فى التلفيق والمواءمة وجدت طريقها إلى منطق أولئك النسّاك المجتهدين كى يقنعوا أنفسهم بأنهم مع شركهم موحِّدون !

---

(١) يونس : ٣٢

من أجل ذلك يقول « راما كريشنا » : عندما أتمثل الموجود الأعلى على أنه سلبى لا يخلق ولا يحفظ ولا يفنى أدعوه « براهمان » أى : الإله اللاشخصى ، وحين أتمثله على أنه إيجابى خالق حافظ أدعوه « مابا أوكالى » أى الإلَه المفارق القائم بذاته . ولكن هذا التمييز بين التمثيلين لا يحتوى أى فرق !!

إذ أن « المفارق » و« اللاشخصى » هما نفس الوجود المطلق كاللبن وبياضه والماس ولألائه ، فلا يمكن التفكير فى أحدهما دون الآخر . فالإلَه براهمان ، والإلهة كالى ، واحد » !

هذا مع أن الأول ذكر ، والأخرى أنثى !!!

وهذا الكلام لا نصفه إلا بأنه فارغ ، فإن السواد للغراب ، والبياض للبن ، والبريق للماس ، والحرارة للنار ، كل هذه صفات لذوات .

وصفة الشىء لا يمكن اعتبارها ذاتاً أخرى ثم تسميتها إلَهاً .

وعندما يكون الرجل طويلاً ووسيماً مثلاً ، فإن هذه الصفات لا يمكن تجريدها عنه واعتبارها شخصاً آخر ، ولا يمكن إذا كانت هناك ذوات متغايرة أن تعتبر ذاتاً واحدة » .

ويختم الدكتور « محمد غلاب » قصة « راما كريشنا » بخرافة جريئة نذكرها لما فيها من استطالة التصوف الوثنى بتجاربه وعجائبه استطالة جعلته يضع المسيحية والإسلام تحت جناحيه ، قال :

« وعندما انتزع « راما كريشنا » نفسه تدريجياً من حالة الغيبوبة المستمرة توحُّد مع آلام الإنسانية الملوثة المجرمة ..

وقد نجح فى هذا التوحُّد والشعور بآلام الغير إلى حد أنه كان يصرخ من شدة الألم عندما كان يحاران من بحارة سفن نهر الجانج يتشاجران .

ومن ناحية أخرى قد أصبح - بعد أن أفاق من تلك الغيبوبة - موقناً بأن جميع الأديان العظمى تنتهى ، بوساطة طرق متباينة ، إلى إلَه واحد .

وعلى أثر إيقانه بهذه الفكرة ، صار شغوفاً بأن يسلك كل تلك الطرق ، لأن الفهم عنده لا يمتاز عن العمل أو عن تحقق الغاية .

ولقد جرّب تلك الطرق فعلاً ، وكانت الطريقة الأولى التى سلكها هى الإسلام .

وكان ذلك فى نهاية سنة ١٨٦٦ فعاش عيشة الصوفى المسلم عدة شهور ، وظل كذلك إلى اليوم الذى ظهر له فيه شخص مضىء المحيا ، ذو وجه جاد ولحية بيضاء ثم دنا منه وتلاشي فيه ، وإذ ذاك دخل فى الغيبوبة ، وكان معنى ذلك أن الإسلام قد انتهى به إلى المطلق !

وبعد سبع سنين من هذه الحادثة دفعت « راما كريشنا » تجربة أخرى إلى التحقيق من طريق المسيحية ، فظهرت أمامه صورة المسيح وتلاشت فيه ثم انغمس فى الغيبوبة ، على النحو السالف » .

والأمر فى نظرنا ضرب من الهوس الفكرى والاضطراب النفسى .

* * *

ولنترك التصوف الهندى جانباً ولنتناول التصوف المسيحى .

إن النصرانية - من حيث هى دين سماوى - تتضمن من العقائد والعبادات ما يجعلها ينبوعاً جياشاً لأزكى العواطف وأشرف المسالك ..

فالإنجيل أنزله الله هدىً ونوراً .

وعيسى عليه السلام ، جاء مزوّداً بطاقة كبرى من الروحانية والسماحة تمحو ما تركه اليهود فى جو الأرض من جشع وقسوة وأثرة .

وتلامذة عيسى المخلصون كانوا أناساً طيبين مترفعين على شهوات الحياة مقتفين لآثار نبيهم فى حبه للناس وسعيه لتخفيف الشر وتحقيق الخير ، وقد وصفهم القرآن بقوله جلّ شأنه : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً .. ﴾ (١) .

---

(١) الحديد ٢٧

بَيْد أننا لا نعرف ديانة لانت للأفكار الدخلية ، وظلت تتشربها مثل المسيحية .

ولو كان التأثر فى فروع الشريعة ما عزَّ الأمر على العلاج ، ولكن التأثر للأسف جرّ ذيله على مفاهيم عقيدية كثيرة .

ولنأخذ سيرة القديس « برنار » نموذجاً للتصوف المسيحى الشائع ، يقول الدكتور « محمد غلاب » عن هذا القديس :

« كان منذ طليعة حياته ممتازاً مستنيراً فصيحاً مفوهاً ، وعمل مستشاراً لدى البابا أوچين الثالث ، وكان خطيب الحرب الصليبية الثانية ومسيِّرها فى سنة ١١٤٦ ، ويقول المؤرخون إن روحه كانت حادة ومتطرفة فى الخضوع للانفعال الشخصى ، إذ أعلن أن كل الفلسفة منحصرة فى « معرفة المسيح المصلوب » ، أو أنها هى معرفة حب اللّه للأناسى ، ذلك الحب الذى ينتهى بالإنسان إلى محبة اللّه .

« والحياة المسيحية الصوفية تنحصر عنده فى إتباع طريق النجاة الذى يصفه على النحو التالى : ينبغى للعابد الزاهد أن يصدر عن البحث التأملى فى نفسه ، ثم فى العالَم ، ثم فى الإلَه ، لينتهى أولاً إلى الشهود الذى هو الإدراك اليقينى البعيد عن أى ريب فى الحقيقة ، وأخيراً ينتهى إلى الغيبوبة التى تكون الروح فيها غير شاعرة بنفسها ، فتسمو إلى مرتبة الاستمتاع بالصلة الإلَهية . ولعل ذلك الإحساس أصل فكرة الفناء !!

ويظهر أن طرق التصوف كثرت فى العالَم المسيحى كثرة أقلقت رجال الكنيسة ، لما أشاعته بين الجماهير من أفكار تضادّ النصرانية ، وقد رأى المخلصون من علماء المسيحية أن يضعوا حداً لهذه الفوضى .

فقرّ رأيهم على أن يضعوا للتصوف تعريفاً دقيقاً جامعاً مانعاً ، حتى لا يتلاعب أحد بالألفاظ ، فيدخل فيه ما ليس منه أو يخرج منه ما هو فيه .

ومن أشهر هذه التعريفات المحددة ، ما وضعه الإلَهى الشهير « أميرسون » وهو : « الإدراك الجلىّ المتذوق لما سبق الإيمان به عن طريق الإنجيل . على أن

تكون هذه المعرفة بوساطة الزهادة أكثر منها بوساطة البحث الإنسانى ، وهى مناهج التأمل المرتبط بالتقدم الروحى ، أى أنها ترى وتتذوق ، ثم تنتهى إلى الاتصال بالإلَه » .

ونحن لا ندرى بالضبط حقيقة هذا الاتصال باللّه ، لكنّا لا نقر الخطأ مهما اقترن به من إخلاص وحرارة وعناء .

وعقيدة التوحيد التى أطبق المرسلون على تعليمها لا تتحمل بتة أى صورة من صور التعدد .

والتصوف المسيحى المستمَد من تعاليم الإنجيل الحالى مختلط يقيناً بالحلول والتعدد .

والخادم الذى لا يتردد على سيده وحده لا يُقْبَل عمله ولو انكسر صلبه من التفانى فيه ...

أفضل منه خادم يعرف بيت سيده ولو كان قليل الجهد فى أداء الواجب .

إننى أستغرق فى تفكير حزين عندما أتدبر سير نُسّاك الهند وغيرهم من الرهبان ، ممن كرسوا حياتهم - أو بتعبير أدق ممن أفنوا ذواتهم - وتجردوا من شهواتهم ، تطلعاً إلى غاية أكبروها ، وظمأ إلى وجود آخر تعشقوه !

لأنه لا بد من أساس عقلى صالح ، ومهاد شرعىّ مقبول كيلا تذهب هذه الشحنات العاطفية عبثاً .

ونحن نعلم أن الإلحاد الذى شاع فى ميادين العلم والاقتصاد والسياسة والفن وسائر أرجاء الحضارة الحديثة نشأ من اهتزاز الركائز العقلية للدين الذى ألفته أوروبا ، ولم تأنس لغيره ..

* * *

وقبل أن نتحدث عن طبيعة التصوف الإسلامى نذكر كلمات لـ « ألكسيس كاريل » الطبيب الحاذق والعالِم البصير ، يقرر بها رأيه فيقول : « إن الإحساس

الدينى استئصالاً تاماً من الحياة العصرية . وكذلك ألغى النشاط الصوفى من معظم الأديان .. حتى معناه نسى . ومن المحتمل أن مثل هذا التجاهل مسئول عن تدهور الكنائس ، لأن قوة الدين تعتمد على تركيز النشاط الصوفى حيثما تنمو الحياة بصفة مستمرة .

ومهما يكن من أمر ، فإن الإحساس الدينى لا يزال حتى اليوم نشاطاً لا مفر منه بالنسبة لشعور عدد من الأفراد ... كما أنه يظهر نفسه بين الأشخاص المثقفين ثقافة عالية ..

ومن العجيب أن أديرة بعض الأديان تضيق بمن يحاولون الدخول إليها من الشبان والشابات الذين ينشدون دخول العالَم الروحى عن طريق الزهد والتصوف .

وللنشاط الدينى جوانب مختلفة مثل النشاط الأدبى .. وهو يتكون ، فى أبسط حالاته ، من تطلع مبهم نحو قوة تفوق الأشكال المادية والعقلية لعالمنا .. إنه نوع من الصلاة غير المنطوقة ، إنه بحث عن جمال أكثر نقاء من الجمال الفنى أو العلمى . لأن حب الجمال يؤدى إلى التصوف .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الطقوس الدينية تقترن بأشكال مختلفة من الفن . ولهذا فمن السهل أن تنقلب الأغنية إلى صلاة . وما زال الجمال الذى ينشده المتصوِّفون أكثر غنىً واتساعاً من المثل الأعلى الذى ينشده الفنان .. إنه لا شكل له ، ولا يمكن التعبير عنه بأى لغة ، ويختفي بداخل أشياء العالم المنظور ، وقلّما يُظهر نفسه .

ويتطلب السمو بالعقل نحو الذات العلية التى هى مصدر جميع الأشياء . نحو قوة ، هى مركز القوى ، نحو اللّه - جلّ جلاله - ففى كل حقبة من حقب التاريخ ، وفى كل شعب من الشعوب ، أشخاص يتمتعون بهذا الإحساس العجيب فى درجة عالية .. ويكون التصوف المسيحى أعلى أشكال نشاط الدين المسيحى .

ويحتوى التصوف فى أعلى درجاته ، على فن متقن غاية الإتقان ، ونظام

دقيق صارم ، يبدأ أولاً بالزهد ، إذ أنه من المستحيل على الإنسان أن يدخل مملكة التصوف من غير التدرب على الزهد فى متاع الدنيا ، مثلما هو مستحيل على الإنسان أن يصبح رياضياً من غير تدريب بدنىّ .

ولما كان التدريب على الزهد شاقاً للغاية ، فإن رجالاً قلائل جداً هم الذين يملكون الشجاعة الكافية على التقدم للتصوف ، فإن الرجل الذى يعتزم القيام بهذه الرحلة الشاقة يجب عليه أن ينبذ متاع هذا العالَم ... وأخيراً نفسه .

* * *

وربما كان عليه بعد ذلك أن يعيش وقت طويلاً فى ظلال الليل الروحى . وفى حين أنه ينشد السمو الروحى من خالقه ويحزن لفساد نفسه وضعتها ، فإنه يكابد تنقية حواسه ، وتلك هى أول وأظلم مرحلة من مراحل التصوف . وهكذا يفطم المتصوف نفسه من نفسه ... فتنقلب صلاته تأملاً ، ويدخل الحياة المنيرة ، ولكنه لا يستطيع وصف ما يمر به من تجارب ، لأن عقله يهرب من الفراغ والزمن » .

ولنا إيضاح نذكره هنا ، لقد تتبعنا نفراً من علماء الكون والحياة فى الغرب ، وقرأنا لهم كلمات مضيئة استقينا منها أن القوم مؤمنون باللّه ، مصدّقون بوجوده وعظمته وتنزيهه .

وهم أشبه ما يكونون بالحنفاء فى الجاهلية الأولى ، كفروا بوثنية قومهم ، ولكنهم لم يعرفوا الطريق إلى دين يسد فراغ نفوسهم ، فعاشوا يتلمسون الطريق إلى الحق على هَدى طباعهم السليمة وسجاياهم المستقيمة .

وما أكثر الموحدين من علماء الغرب ، وما أيسر ترحيبهم بتدين يوائم ما درسوا من علم ، ويروى عطشهم الروحى إلى السكنية والحب : ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) .

---

(١) الرعد : ٢٨

والذى يزرى بعلماء الدين غالباً ، حبهم للدنيا ، واقتناصهم للمال ، وجفاء نفوسهم الذى يكره الناس فى الدين ويصرفهم عن العبادة .

ورجال الدين المحترفون مجامع لهذه السيئات ، وقد أجمل القرآن تلك المثالب فى قوله : ﴿ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) .

ومن هنا يحترم المثقفون مسالك الزهاد ولو شابها الخطأ ، ويقبلون على دراسة التصوف والاقتباس مَن معالمه ، لا لشىء ، إلا لأن ما فيه من حرارة قد يستهويهم .

ونريد نحن أن نصل إلى الحق المصفى ، وأن نقدم من جوهر الإسلام ما يكفى ويشفى ..

وفى الكتاب والسُّنَّة ينابيع لليقين الحىّ والإخلاص المبرأ ، والناس تحب صنوف الجمال وتبحث عنها .

وإذا كان المرهَقون يقصدون الحدائق ابتغاء الخضرة اليانعة والهواء النقى والأزهار البهيجة والروائح العاطرة ، فإن الأرواح الناشدة للجمال ، الهافية للخير ، الباغية للرضا ، تجد ما تريد فى آى القرآن وآثار نبيه .

حقائق يسجد لها العقل وينفسح لها الصدر فى كساء من الأدب الراقى والعرض الشائق ، يؤسس الإخلاص والولاء للّه وحده .

والتصوف الإسلامى ، فى صورته المقبولة ، لا يعدو أن يكون مزيداً من الصلة باللّه والاعتصام به والتبتل إليه .

وهذا الفضل الملحوظ يجعل العابد عاشقاً للصلاة ، آلفاً للصيام ، بذالاً للمال ، متحلياً بالفضائل ، نافراً من الدنايا ، متحمساً للحق ، آمراً بالمعروف ، ناهياً

---

(١) التوبة : ٣٤

عن المنكر ، متخففاً من مطالب النفس ، متكبراً على إغراء الدنيا ، مبتذلاً شخصه فى خدمة الأمة وإبلاغ الرسالة وهداية الخلق ، متتبعاً لشُعَب الإيمان كلها يقيمها فى نفسه وفيما حوله ..

قد تقول : تلكم الخلال هى مطالب الإسلام من كل مسلم ! فلا وجه لتخصيصها بفريق دون فريق .

ونجيب : لا تخصيص هنالك ! وإنما يتفاوت الناس سبقاً واقتصاداً ، ويتفاوتون ضبطاً للعاطفة واندفاعاً معها ...

خذ مثلاً هذا السلوك المتفاوت من رجلين عاقلين :

لقد أقبل أنس بن النضر للاشتراك فى معركة « أُحد » ، فأدرك القتال فى أسوأ مراحله ، المسلمون يُصعدون فى الجبل فارين ، والمشركون يتبعونهم قاتلين منتصرين .

وماذا يصنع أنس وحده والحالة هذه ؟ إنه لن يغير ذَرَّة من هذه المأساة ، ولكنه أبى ألا أن يتصدى لقتال الكفار ، وأن يقذف بنفسه فى غمرات الموت وهو يصيح : إنى أشمّ ريح الجنة من وراء أُحد !

وتلاشى جسد الشهيد بين سيوف الأعداء ...

وكان الصحابة يرون هذه الآية نزلت فيه : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (١) .

كان أنس يستطيع أن يترك منازلة خصوم اللّه فى هذه الآونة متربصاً بهم وقتاً أنسب ، كان يستطيع أن يتراجع وعلى لسانه قول القائل :

اللّه يعلم ما تركتُ قتالهم حتى علوا فرسى بأشقر مزبدِ

---

(١) الأحزاب : ٢٣

وشممتُ ريح الموت من تلقائهم فى مأزق والخيل لم تتبـــــــدِ

وعلمتُ أنى إن أقاتل واحـــداً أُقتل ولا يضرر عدوى مشهدى

وهذا اعتذار مقبول ، وسياسة حسنة للأمور ، ولكنه أبى .

وما أبى فعله هو ما فعله خالد بن الوليد فى معركة مؤتة ، فأنقذ به الجيش الإسلامى .

فى مجال العاطفة الفوّارة ، والقلب الخفّاق بحب اللّه ورسوله ، وُلِد التصوف الإسلامى الأول ، دون أن يحمل هذا العنوان .

ولا يتصور عاقل أن يخرج هذا المسلك عن نطاق الكتاب والسُنّة ...

بَيْد أن للعاطفة الإنسانية فى كل زمان ومكان اهتزازات تحتاج إلى ضبط ، وقد فطن العلماء فى هذا الميدان إلى ذلك الاهتزاز من قديم ، فأكدوا أن الانحراف قيد أنملة عن الكتاب والسُنّة يُعَد عصياناً ، ويعزل صاحبه عن الصراط المستقيم .

ويظهر أن اسم التصوف لم يُعرف إلا فى المائة الثانية للهجرة ، وكان القوم يلقبون بـ « الزهّاد » قبل ذلك .

وقد عرّف أبو حامد التصوف بأنه « تجريد القلب للّه تعالى واحتقار ما سواه » .

وقال عبد القادر الكيلانى فى كتابه « الفتح الربانى » : « الصوفى مَن صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب اللّه عزّ وجلّ ، وسُنّة رسوله ﷺ .. » .

وقال الجنيد وهو سيد المتصوفة : « الطرق كلها مسدودة إلا على مَن اقتفى الرسول ﷺ » .

وقال : « مَن لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يُقتَدى به فى هذا العلم ، لأن علمنا ومذهبنا مقيَّد بالكتاب والسُنّة » .

وقال أبو يزيد البسطامى لبعض أصحابه : « قم حتى تنظر هذا الرجل الذى

قد شهر نفسه بالولاية - وكان رجلاً مشهوراً بالزهد - فمضينا ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببزاقة تجاه القبْلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يُسلِّم عليه ، فقال : هذا رجل غير مأمون على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه » ؟

وقال : « لو نظرتم إلى رجل أُعطى الكرامات حتى تربع فى الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود وفعل الشريعة ، وإلا فهذا استدراج » .

وقال أبو سليمان الدارانى : « ربما تقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياماً ، فلا أقبل شيئاً منها إلا بشاهدين عَدْلين : الكتاب والسُّنَّة » .

وقال ذو النون المصرى : « ومن علامات المحب لله سبحانه وتعالى متابعة حبيب الله محمد ﷺ ، فى أفعاله وأخلاقه ، وأوامره وسننه » .

وقال بشر الحافى : « رأيت النبى ﷺ ، فى المنام فقال لى : يا بشر ، هل تدرى بِمَ رفعك الله تعالى من بين أقرانك ؟ قلت : لا ، قال : باتباعك سُنَّتى ، وخدمتك الصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابى وأهل بيتى ، ذاك هو الذى بلغك منازل الأبرار » .

وقال أبو سعيد الخراز : « كل فيض باطن يخالفه ظاهر الدين فهو باطل » .

وقال الشيخ عبد القادر الكيلانى : « جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله عزّ وجلّ ، وسُنَّة رسوله ﷺ ، ولا يعملون إلا بظاهرهما » .

وقال الشيخ محيى الدين من جملة أبيات افتتح بها الباب الثامن والثلثمائة من « الفتوحات » :

فنجاة النفس فى الشـــرع فــلا ... تــك إنسانــاً رأى ثــم حُـــرِم

واعتصم بالشرع فى الكشف فقد ... فاز بالخيـر عُبيْـد قــد عصــم

كل علم يشهـــد الشـــرع لـــه ... فهـــو علـم فبـــه فلتعتصـــم

فـإذا خالفه العقـــل فقـــل طورك الزم ما لكم فيه قدم

غير أن التصوف بعد أن طال عليه الأمد اختلط بأوحال كثيرة ، وتسللت إليه الأفكار ذاتها ، التى تسللت إلى النصرانية من الوثنية الهندية ، حتى إن البعض آثر الإعراض عن هذا التراث كله ... لكثرة ما طفح فى كتب القوم من دخيل وأباطيل ..

والإنصاف يتقاضانا التمحيص ، وميز الخبيث من الطيب .

وما ذلك إلا لأنّا لم نجد فى بقية علوم الدين ما يقوم بوظيفة التربية القلبية والإيقاظ العاطفى للنفس الإنسانية .

والإسلام لا يستغنى عن هذا الجانب .

أعرف دارسين للدين بارعين فى شتّى علومه ، ولكن قلوبهم خواء ، وبواطنهم ما تتحرك فيها إلا غرائز العوام ، ومطالب الدنيا ...

إنّ الدين ما ينتفع بألسنة هؤلاء إلا أن تحيا قلوبهم بعد ممات ، وتهتز بخشية الله اهتزاز الأرض بالنبات .

* * *

ثقافتنا التقليدية تحتاج إلى مراجعة

أشرنا إلى أن الطريقة التى يواجه بها المسلمون الحياة تحتوى على أغلاط كثيرة .

ومرد ذلك إما إلى جهلهم بأمور كان يجب أن يحيطوا بها علماً ، وإما إلى علمهم بأمور على غير وجهها الصحيح .

والثقافة التقليدية - وهى التى تصنع عقيدة الأمة ومزاجها وشخصيتها ووجهتها - مسئولة عن ذلك القصور السائد .

لأنها تنقص عناصر لا بد منها لتكوين الغذاء العقلى المطلوب للجماهير .

ولأنها - خلال القرون الطوال - تضمنت جملة من التصورات والأحكام المعيبة .

ولأن ما بها من حقائق ما زال يعرض العرض المنفر ، أو يُفسَّر التفسير الناقص .

وذلكم هو السر الأول فى تخلف العالم الإسلامى خلال الأعصار الأخيرة تخلفاً جعل الأوروبيين - منذ عصر الإحياء - ينفردون تقريباً بقيادة القارات الخمس .

ومن السخف أن نجعل التصوف المنديل الذى نمسح به أوضارنا ، فإن فساد التصوف جزء من الفساد الذى لحق جملة العلوم الدينية ، وفى مقدمتها الفقه ، والكلام ، والتفسير ، والحديث .

وانحطاط التعليم الدينى فى هذه المجالات هو المسئول عن تكوين أجيال ضيقة الأفق ، بيِّنة القصور ، لا تتقدم بها دنيا ، ولا ينتصر بها دين ..

لقد كان من إعزاز الله لرسالته الخاتمة أن خلّد كتابها وعصمه ، كما استبقى محمداً الأسوة الفريدة للكمال الإنسانى ، فجعل سُنَّته مصدراً ثانياً للدين بعد قرآنه الكريم .

وعن طريق الكتاب والسُنَّة يمكن تجديد التراث الدينى كله ، وخلق ثقافة إسلامية سليمة كاملة لا عوج فيها ولا شطط .

ولست أعيب أسلافنا أو أنتقص جهادهم ، فمن هؤلاء الأسلاف تلقينا فنوناً من المعرفة المشرفة والتربية الصالحة .

وإنما نلفت الأنظار إلى أن القرون الأولى للإسلام مليئة بالخير والذكاء والنشاط ، وأن شكوانا تنصب فى جملتها على عصور الجمود والكسل العقلى ، والسماح للبدع والخرافات بالتعشيش فى أرجاء المجتمع وكأنها دين قويم وصراط مستقيم !!

إن الانطلاقة العسكرية الكبرى للإسلام ، والانطلاقة الحضارية الأكبر لأمته ، كانت من ورائها ثقافة خلاقة للحياة والقوة ، للإيمان والخُلق ، للإبداع والإجادة .

هذه الثقافة التى انبجست من الكتاب والسُنَّة هى التى جعلت الصحابة والتابعين يشرفون على الدنيا من عل ، لا إشراف الطاغية على الضعاف المقهورين ، ولكن إشراف المعلم على التلامذة الناشئين ، وإشراف الإمام الموجه على الحيارى الراكدين .

وقد ظلت الثقافة الإسلامية أمداً ليس بالقصير وهى أجدر ثقافات العالم بالإقبال والحفاوة ، وأقدرها على البعث والتنظيم . وأطوعها لتطور العصور وتغاير الأزمنة ..

ثم فقد المسلمون خصائص التحليق فأخذوا يهبطون رويداً رويداً ..

ومنذ بضع مئات من السنين وهم يدبُّون على الثرى ، على حين شرع غيرهم يصعد ، ويعلو ، ويسبق !!

* * *

ونريد بين يدى حديثنا عن الثقافة الإسلامية التقليدية أن نفرق بين أمرين :

بين الدين والمتكلمين فيه .

فتفسير القرآن غير القرآن ، القرآن كلام الله الذى لا ريب فيه . أما التفسير فهو جهد الرجل العالم فى تبيان مراد الله من كلامه .

وعندما نلحظ الجهد نجد الطابع الشخصى يبرز فيه .

فالعالِم فى البلاغة يجتهد فى شرح الإعجاز البيانى للقرآن الكريم .

والعالِم فى الكلام يقرر أدلة العقائد ويناقش آراء الفلاسفة ويرد على المذاهب المخالفة ...

والعالِم فى الفقه يفصّل الأحكام الفقهية ويبرز حكمتها ، ويقارن بين وجهات النظر التى انشعبت فيها .

والعالِم فى المرويات والآثار يقرن الآية بما يشبهها من قرآن أو يشرحها من حديث أو كلام لصاحب أو تابع .

والعالِم فى التصوف يتناول الآيات بما يؤيد طريقته فى الحياة والسلوك .. إلخ .

وفى هذه التفاسير الصواب والخطأ .

وكرامة الصواب لا تجىء من انتسابة لقائل معين ، بل تجىء من أنه الحق الموافق فى نظرنا لمعانى القرآن .

ومع تقديرنا للرجال الكبار الذين خدموا علم التفسير ، فقد نرى القرآن الكريم يطلب علماء آخرين ، ينتفعون من آثار أسلافهم وفى الوقت نفسه يعرضون المعارف القرآنية فى صورة أدنى إلى طبيعة عصرنا ، وأنأى عن الصبغات الخاصة التى ذكرناها لكل مفسر ..

ولعل أفضل التفاسير ما كان ترجمة لمعانى القرآن المجردة وحقائقه العارية .

فذلك ما يدع الوحى يأخذ طريقه إلى النفوس ، نوراً فى الفكر ، وطهراً للنفس وتجديداً لغاية عليا تتألق فوق هذا التراب ..

والفقه الإسلامى الذى جمد عدة قرون ، ثم نهض بعد رقدته الطويلة يتعثر فى مشيته ، هذا الفقه يجب أن تعود إليه نضارته الأولى ..

وينبغى أن يدرك الجمهور أنه ليست هناك مذاهب أربعة فى الإسلام ، بمعنى طرق أربعة ينقسم المسلمون فرقاً فرقاً على صعيدها ...

فالفقهاء الأربعة الكبار لا يمثلون أكثر من وجهات نظر فقط للإسلام الواحد الذى لا يقبل تعدداً ولا تفرقاً .

وهذه الوجهات فيها الخطأ والصواب ، وليس هناك إلزام دينى للمسلم أن يلتزم وجهة نظر واحدة فى فهمه للعبادات والمعاملات ...

ولكى يقترب المسلمون من هذه الحقيقة أرى أن يُدرس الموضوع الفقهى ابتداء من نصوص الكتاب والسُنَّة ، ثم تُذكر فى الشرح أفهام الأئمة الأربعة ومَن يدانيهم من الفقهاء الآخرين ، على أنها وجهات نظر فى معنى النص وأن هذه الوجهات متساوية القيمة العلمية .

ويمكن عن طريق المقارنة الدقيقة ترجيح قول على آخر ، كما يمكن للقارىء أن يتخيَّر من هذه الأفهام ما يستريح إليه ، بقطع النظر عن نسبة هذا القول لإمام بعينه .

إن هذا المنهج له فوائد جمة : فهو يجمع المسلمين قاطبة على أصول دينهم ، ويقطع دابر التعصب المذهبى الذى شاع بين جماهير غفيرة ..

وهو - بفتح باب المقارنة - يطلق العقول من سجن التقليد ، ويمحص كثيراً من الآراء ، التى تنسب إلى الأئمة وليست لها وجاهة علمية ..

إن القضاء الشرعى فى مصر اعتمد على فقه الأحناف فى فسخ زواج الشيخ على يوسف - وهو من زعماء الإصلاح الحديث - بإحدى الفتيات العربيات ، بدعوى أنها قرشية (!) وهو مصرى ، فليس لها بكفء ..

أترى أبا حنيفة لو كان موجوداً يقضى بهذا العبث ؟!

ثم إن هذا التحرر المنشود هو البداية لمواجهة ما جدّ من أحداث ، وما أكثر ما يحتاج إلى رأى الفقه الإسلامى فى هذه الأيام .

ولا أحب أن تكون فى كلامى رائحة انتقاص لأئمتنا الأوائل ، فنحن تلامذة لهم فى أكثر من ميدان ...

واعتقادى أنهم لو وُجِدوا اليوم ما سلكوا إلا هذا المسلك الذى نقترحه !

* * *

وعلم الحديث يحتاج فى عصرنا هذا إلى إحياء .. فقد مات نقدته الحافظون الفاقهون ، وما يُدرس منه فى الأزهر قليل الغَناء ..

وأذكر أن ما درسناه فى علم مصطلح الحديث كان قواعد محنطة فى الكتب ، غير مقرونة بالأمثلة التى تشرح عملياً هذه القواعد ، والتى تعرض على الطلاب نماذج مختلفة من الأحاديث المرفوضة والمقبولة .

ويخيل إلىّ أنه ليس فى مصر الآن علماء برجال الحديث ، خبراء فى الجرح والتعديل .

وقد نشأ عن ذلك أن بلاداً إسلامية برمتها يحكمها حديث مكذوب ، كحديث : « لا تعلموهنّ الكتابة ، ولا تسكنوهنّ الغُرَف » [1] - يعنى النساء .

وكحديث : « خير للمرأة ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل » .

إن هذه الموضوعات أساس للسلوك في بعض البيئات الإسلامية ، أما الأحاديث الصحاح فى الموضوع نفسه فطُوِيت أو أُوِّلت !!

وللأحاديث الضعيفة - حتى حين يُعمل بها فى فضائل الأعمال - إيحاءات تستدعى الحذر ، ولذلك يجب التنبيه إلى درجتها ، حتى لا تعدو المقصود من إيرادها ..

وكذلك الأحاديث الصحيحة يجب أن يصحبها شرح دقيق ، فإن الحديث يفسد إذا أسىء فهمه ، أو نُقل إلى غير دائرته ..

---

(١) الحجرات على الطريق . والحديث فيه محمد بن إبراهيم الشامى كان يضع الحديث ، راجع الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ١٢٦

وما بنا من إزورار عن سنن الآحاد ، معاذ اللّه ، ولكنّا نقف منها موقف أسلافنا الأوّلين من الأئمة المتبوعين ، والعلماء الراسخين .

وكم فى السُنّة من كنوز روائع تنتظر أن نجليّها ، وأن نضعها فى نسق رتيب مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة .

ولعل ما اقترحناه من دراسات فقهية مقارنة على ضوء الكتاب والسُنّة يفتح باب النظر فى فهم الأحاديث ، ومعرفة الأساس الذى يجعل أحد الأئمة يؤثر حديثاً على آخر . فإن العلم بمواقع الأحاديث الصحيحة يعطى صورة دقيقة لملامح الإسلام ، وترتيباً مطلوباً لتعاليمه وفق مكانتها وخطورتها .

ونريد هنا أن نفرّق بين الحفّاظ والمحققين ، فإن الحافظ رجل يجيد الاستيعاب والإحصاء ، ويحفظ فى ذاكرته مخزوناً ضخماً من الآثار والآراء إلا أنه ضعيف الوعى بالحقائق الدقيقة ، والمرامى البعيدة . ثم هو لا يقرأ ما بين السطور ، ولا يملك مَلَكة النقد ..

أما المحقق فرجل يقظ الحس ، ذكى النظر ، يستخلص الفوائد الكبيرة من الكلمات القلائل - وهو ينظر فى حصيلة الحافظ كما ينظر الأستاذ فى مسودة لما تنقّح بعد .

وقد أُتِىَ الإسلام من غفلات الحفّاظ ، واحتقابهم كل ما يعرض لهم ..

خذ مثلاً رجلاً كـ « السيوطى » فهو حافظ من أكابر الحفّاظ ، إلا أنه حاطب ليل يجمع الغث والسمين ، بل يجمع الحق والباطل ..

أما الشيخ « محمد عبده » مثلاً ، فقد كان رجلاً عقله أكبر من حفظه ، وبصره بالحكمة الإسلامية أحدّ من إحاطته بالآثار الواردة .

ولولا أن تلميذه الشيخ « محمد رشيد رضا » غطى هذا النقص لشغب عليه الكثيرون .

والذى نبغيه من جمهرة علماء الدين ، أن يأخذوا الخير من أطرافه ، فيكون

باعهم طويلاً فى معرفة الآراء والمذاهب والآثار المختلفة ، ويكون فقههم دقيقاً حتى لا يحرفوا الكلم عن مواضعه ..

إن الفكرة الشائعة عن الإسلام تحتاج إلى تصحيح فى أذهان خصومه وأصدقائه .

وقد سألت نفسى يوماً : لو أن الحكم الفردى لم ينشأ مبكراً فى تاريخنا نحن المسلمين ، أكانت سياسة الحكم والمال تأخذ وجهتها التى سادت خلال عصور طوال ؟

إن تصرفات الحكام المسلمين تركت ظلالاً شتّى على سير الإسلام بين الناس ، كما تركت ظلالاً شتّى على الحياة الاجتماعية والعقلية للأمة الإسلامية ...

ومن حسن الحظ أن الإسلام معصوم الأصول ، وأنه لا قداسة فيه لبَشر ، وأن صاحب الرسالة وحده هو الذى يُدان له بالولاء والطاعة .

وقد استطاعت الحقيقة الإسلامية أن تشق طريقها على كثرة العوائق ، كما تشق أشعة الشمس طريقها وسط ركام من الغيوم ..

وعندما نلقى نظرة على الأمة الإسلامية الكبيرة - وهى الآن مجموعة من الشعوب المتخلفة - نجد أن تقهقرها فى الحياة يعود إلى أنها معزولة روحياً عن ينابيع ثقافتها الصحيحة ، وأن العوج الذى لابس معرفتها الدينية يكمن وراء هذا التخلف .

ذلك إلى جانب التمرد على جملة من التعاليم النافعة البيِّنة .

ليت شعرى ! أين القدرة على الحياة والجرأة على المجهول التى فاضت بها سيرة أسلافنا الأوائل ؟

.. القدرة والجرأة اللتان جعلتا القائد الإسلامى الخارج عن أعماق جزيرة العرب يقف على شاطىء المحيط الأطلسى ، وهو يكاد يثب إلى الشاطىء الآخر لو استبان أرضه !!

لا أدرى ما الذى أفقد المسلمين فى العصور الأخيرة هذا الطموح وذلك النشاط ؟

لقد عجزوا فى شئون الحياة عجزاً شائناً ، وظهر هذا العجز شللاً فى رسالتهم وركوداً فى دعوتهم ، ولا غروَ فإنه يستحيل أن تنجح رسالة ليس لأهلها تمكين فى الأرض ، وخبرة بعلومها وأحوالها ..

وعندى أن وزر ذلك يحمله عدد من مفسرى القرآن وشرّاح الحديث إلى جانب جمهرة المتصوِّفين والمتكلمين !

ذلك أن الإيمان باللّه والشعور بعظمته يجيئان ابتداء من النظر فى الكون ودراسة قوانينه وكشف أسراره !

ولو أن المسلمين استجابوا للّه ورسوله فى تفهم الكون واستشفاف آفاقه ، لاطرد تقدمهم فى علوم الكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان وغيرها ، ولكانوا أسبق الأمم إلى امتلاك ما فى البر والبحر من ثروات ، ولأعلوا بذلك كله راية الإسلام ، وحرموا الضلال من أسباب البقاء والمنعة ...

لكنهم - من أثر الثقافة المريضة - لم يدركوا أن آيات العظمة الإلهية مودعة فى خلق الأرض والسماء ، فظنوا أنهم يعظمون اللّه بترديد بعض أسمائه الحسنى ، أو بالجدل النظرى فى صفاته ، أو بالنظر السطحى فى ملكوته ، ثم الانطواء على النفس واعتزال الدنيا .

وإنى أعترف بأن شعاعاً من إجلال اللّه كان يسطع فى فؤادى عقيب قراءة فى علم الفلك أو إطلاع على علم الأجنة ، وأن ذلك كان أربى ألف مرة من معاناة ورد أو استيعاب قضية فى فلسفة العقيدة ، أو صحبة مفسر للكتاب والسُّنَّة قاصر المعرفة .

إنى أرى أن القرآن الكريم أحوج إلى علوم الكون والحياة منه إلى علوم المعانى والبيان البديع ... وليس هذا لبيان الإعجاز العلمى فى القرآن ، كما

يسبق إلى خلد البعض ، ولكن لبناء الإيمان ذاته وتمهيد النفس لقبوله والاطمئنان إليه والدفاع عنه ..

* * *

وشيء آخر يتصل بهذه الحقيقة ، لماذا يكون الإقلال فضيلة ، وتكون اليد السفلى خيراً من اليد العليا ؟

إن جمهرة المتصوفة وعدداً من المفسِّرين للنصوص ، أشاعوا أن الفقير الصابر خير من الغنى الشاكر ، وأن قلة الشيء للمؤمن خير من كثرته !

وتوهموا أن حملة القرآن على الدنيا والمفتونين بها تعنى فراغ اليد منها والتشرد فى أرجائها ، وهذا جهل فاضح .

فإن الإسلام يحتقر الدنيا التى يحتقرها كل رجل شريف . الدنيا التى تجيء ثمن التفريط والخيانة ، والتى تصطاد من مصادر مريبة ملوثة ، أو التى تحجب صاحبها عن الحق وتقعد به عن الواجب .

أما حيث تنتفى هذه السيئات ، فإن الدنيا ركن فى الدين ، وتمام للمروءة ، وقيام للحياة .

وكذلك فهم الأمر أسلافنا الماضون ، فبنوا الحياة وأعلوا البناء ، وأقاموا الدين وأحاطوه بألف سياج ...

وأنا أرمق اليوم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى [1] ، وأرى عشرات الدول ترنو إليهما فى انتظار العون المادى والعلمي ، فأرى كلا الفريقين يبذل فضله داعماً به مبادئه وسياسته .

أفكان هذا الثراء نقصاً هنا أو هنالك ؟

---

(١) الكتاب مؤلف أيام ازدهاره واقتسامه مع أمريكا السيادة على العالم .

إن تأليف القلوب بعض مصارف الزكاة ، فهل يريد المسلمون أن يتألفوا القلوب بالقول المعسول وحده على حد قول المتنبى :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال !!

إن الثقافة الإسلامية فى القرون الأولى كانت بريئة من هذا الوباء فأنجحت الأمة الكبيرة ، ثم جاء بعد ذلك مَن يقول :

زيادة المرء فى دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران

فكان هذا الكلام حفرة تردينا فيها ، لأن القعود عن الدنيا جريمة ، وكاسبها بين أمرين بعد أن يمتلكها :

إما أن يسخِّرها لله ، فهذا بأفضل المنازل .

وإما أن يؤدى الفرائض ويمسك ما لديه من بعد لنفسه وولده وحاضره ومستقبله ، فله أجره فيما أنفق وله حقه فيما أمسك .

إن حق أى امرىء في دنيا صائنة ، كحقه فى جسد سليم الحواس ، مكتمل الأعضاء ...

وكل كلام يصرف المسلمين عن هذه الحقائق فهو سخف عقول معتلة ، ولغو أقوام لا يوثق بهم فى قليل أو كثير .

* * *

ومما شاع بين الجماهير ، وساندته كتب دينية كثيرة ، الإيمان بالجبر ، تحت عنوان الإيمان بالقَدَر .

وللصوفية جهد كبير غير مشكور فى هذا الميدان ، وكذلك لغيرهم من المفسِّرين والمحدِّثين .

ترى هذا المؤمن بالمكتوب لا إرادة له ولا عزم ، ولا هدف له ولا اتجاه !

تراه متماوتاً تتقاذفه سرّاء الحياة وضرّاؤها ، كما تتقاذف اللجج غثاءً طافياً !!

تراه متواكلاً ينتظر من « المصادفات » أن تصنع له أى شىء ..

كافراً بالأسباب والمسببات ، أو منافقاً فى الاعتراف بجدواها ، فهو إذا باشرها فتنفيذاً للأمر الصادر لا تصديقاً بالفائدة المنشودة .

وهذه الأحوال النفسية كفر بالدين والدنيا معاً ، ويستحيل أن تنهض معها أمة ..

والمعروف من كتاب الله وسُنَّة رسوله تقرير مبدأ المسئولية الشخصية ، وحرية الإرادة الإنسانية ، وأن الإنسان صانع مستقبله عند الله ، ومستحق المثوبة أو العقوبة عدالة حقيقية لا رواية تمثيلية ، وأن القَدَر شىء آخر غير ما يتخيله أولئك الغافلون ..

ولسنا هنا بصدد سرد أدلة ذلك ، فقد شرحناها فى كتبنا الأخرى ، ولكنى لاحظت أن هناك معنى واحداً تكرر فى القرآن أكثر من سبع مرات ، قوامه :

أن المجرمين عندما يُحَاط بهم يطلبون من الله فرصة أخرى لإصلاح ما أفسدوا ، أو عمراً ثانياً يستدركون فيه ما فاتهم ، وأن أحدهم لا يجرؤ أبداً على ادعاء أنه كان مسيِّراً أو مسخَّراً .

وتدبر قوله تعالى فى المفرط عندما تأتيه نذر الموت ، ويحس قرب الالتقاء بالله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلاَّ ، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١) .

وفى سورة ثانية يقول : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ (٢) .

---

(١) المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠ (٢) المنافقون : ١٠ - ١١

وفى سورة ثالثة يقول : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وفى سورة رابعة يقول : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة خامسة تسمع صياح المجرمين يعانون أليم العذاب : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ (٣) .

وفى سورة سادسة يحذر من الندم حين لا ينفع الندم : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

وفى سورة سابعة يقول : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ (٥) .

وفى هذه الآيات كلها يشعر الخطّاءون أنهم قصّروا قادرين على الكمال وعصوا قادرين على الطاعة ، وأنه لا مكان لدعوى الجبر والإرغام !

والواقع أن الكسالى المتعللين بالأقدار كذبة ، إنهم لما استبهظوا تكاليف التسامى . وآثروا الإخلاد إلى الأرض أرادوا الدفاع عن أنفسهم بالتملص من تبعة ما اكتسبوا ، وهيهات ..

الإسلام ، كما عبّر القرآن ، اقتحام عقبة وتواصٍ بالحق والصبر . فكيف يتجاوب معه امرؤ يرى أنه لا قدرة له ولا إرادة ؟

---

(١) الأنعام : ٢٧ (٢) السجدة : ١٢ (٣) فاطر : ٣٧

(٤) الزمر : ٥٦ - ٥٩ (٥) الحجر : ٢

امرؤ يرى أن الغنى والفقر حظوظ ، وأن النجاح والسقوط حظوظ ، وأن الجنة والنارحظوظ ! وأن السعى مجهود لا طائل تحته ...

لقد شاع هذا الإفك فى كتب دينية كثيرة ، وإليه - بلا ريب - يرجع السبب فى تخلف الأجيال التى ورثناها ..

ويخيل إلىّ أن بعض الآراء والمذاهب يولد فى مقابلة آراء ومذاهب أخرى ...

وأن طول الأمد يوسع شقة الخلاف ، ويُنسى علّة نشوبه ...

قد يكون التنويه بالقَدَر رداً على منكريه ، فجاء الكلام مصطبغاً بمبالغة ربما تسوّغ عند احتدام النقاش ..

وقد قال المؤرخون : إن زهد المتصوِّفة جاء رد فعل لترف العصور التى ولدت فيها هذه النزعة ..

وهذا كلام مقبول فى تحرير مثار النزاع حول قضايا ثقافية مهمة ..

وقد لاحظنا فى عصرنا أن الكلام يكثر عن الشورى إذا اشتد الاستبداد ، وعن العدل الاجتماعى إذا تظالمت الطبقات ، وعن العفة والاحتشام إذا شاع الفسق والتبرج ..

بل إننا نندفع تلقائياً إلى الكلام فى الطرف الآخر عندما نرى الإفراط فى مسلك ما .. ونريد بذلك إعادة التوازن إلى الأوضاع الجائرة ..

ومما يجب الاعتصام به فى هذه المناسبات ، التزام الدقة فى تقرير الأحكام الإسلامية ، فلا نظلم الحقيقة فى تعبير .

وإذا وقع شطط فى إبداء رأى ، استصحبنا الملابسات التى أوحت بالحدة أو المبالغة فى إبداء ذلك الرأى ، فأعاننا ذلك على الاعتدال ..

* * *

ونخلص من ذلك إلى أن الثقافة الإسلامية الصحيحة هى التى تجمع بين صدق العلم وحكمة العلاج ..

ولو كان متصوِّفة اليوم راشدين ، لجعلوا الاستماتة فى العمل والكفاح رد فعل من جانبهم لبلادة العوام ، كما جعل أجدادهم الزهد رد فعل لترف الحكام وحواشيهم .

إن أمتنا بحاجة إلى جهاد فى الداخل والخارج ، إلى جهاد نفسى واجتماعى وعسكرى يستفرغ الطاقات ويستنفد الأعمار ...

ومعنى ذلك أنه لا وقت ولا مكان لسلخ مشكلات ثقافية من ملابستها السابقة وعصورها القديمة وشغل الأذهان بها فى هذه الأيام .

ذهبت يوماً لإلقاء درس فى طلاب كلية الهندسة بإحدى الجامعات ، فإذا أحدهم يريد منى أن أتحدث فى استواء الرحمن على عرشه !!

وعلمت أن ذلك كان موضع جدل بين الطلاب !

فكدتُ أختنق من الغضب ، وزجرتُ بقسوة صاحب السؤال ، وحذَّرتُ المستمعين من الخوض فى هذه الأمور بأى أسلوب ..

أذلك ما نشغل به أبناءنا ؟

إن الثقافة الإسلامية ، فى سياسة الحياة والأحياء ، فى تربية النفوس والضمائر ، فى تأسيس العلاقات والروابط ، يجب أن تعود إلى ما كانت عليه أيام صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، ومَن استمسك بعروتهم من الأئمة المخلصين والعلماء المتقين ..

وأرى أن الطابع العملى كان بارزاً فى هذه الثقافة ..

* لماذا لا تُؤلَّف رسائل فى أمثل الطرق لغرس الصدق والأمانة والوفاء فى النفوس ودراسة ما يعترض هذه الفضائل لدى الأفراد والمجتمعات ؟

* .. لماذا لا نهتم اهتماماً شديداً بمحاربة الفساد الجنسى عن طريق الدراسة الواعية الصريحة لتكوين الأسرة ، وطبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى ؟

* .. لماذا لا نضع تحت المجهر جميع التقاليد والمعاملات التى تنتشر بيننا ،

ونتعرف بواعثها وغاياتها ومساربها فى الحياة ونُحكِّم فيها تعاليم الفطرة الإسلامية ، وندع الخداع والافتعال والصمت المريب ؟

* .. ثم إلى متى يظل القرآن الكريم كتاب الموتى ، يستمع الناس إليه فى محافل الحزن لا فى مجامع العلم والحكم ؟

لماذا تلقَّى محمد ﷺ هذا الكتاب ؟

يقول الله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١) .

إن كل معرفة تلقى بين أيدى الناس شعاعاً يضىء الطريق ، ويكشف الغاية ، ينبغى أن نحتضنها وننميها ، لأنها جزء من الفطرة التى بعثنا بها ، والهداية التى ننشدها للعالَمين .

* * *

(١) إبراهيم : ١